سـورة القلم

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مكيـة في قول الحسـن وعكرمة وعطاء وجـابر، وقال ابن عـباس وقتـادة: من أولها إلـى قوله تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ [القلم: ١٦] مكي، ومن بعد ذلك إلى قوله تعالى: ﴿أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٣٣] مدني، ومن بعـد ذلك إلى قوله: ﴿يَكْتُبُونَ﴾ [القلم: ٤٧] مكي، ومن بعـد ذلك إلى قوله تعالى: ﴿مِنَ الصَّـٰلِحِينَ﴾ [القلم: ٥٠] مدني، وما بقي مكي؛ قاله الماوردي (١).

﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ ﴾

قوله تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾ أدغم النون الثـانية في هجائـها في الواو (٢) أبو بكر والمفضل وهبـيرة وورش وابن محيصن وابن عامر والكسائي ويعقوب، والباقون بالإظهار، وقرأ عيسى بن عمر بفتحها؛ كأنه أضمـر فعلا، وقرأ ابن عباس ونصـر وابن أبي إسحاق بكسرها على إضمار حـرف القسم، وقرأ هارون ومحمـد بن السميقـع بضمها على البناء، واخـتلف في تأويله؛ فروى معاوية بن قـرة عن أبيه يرفـعـه إلى النبي ﷺ أنه قـال: «ن: لوح من نور» (٣)، وروى ثابت البناني أن ﴿نٓ﴾ الدواة، وقـاله الحسن وقتـادة، وروى الوليد بن مسلم قال: حدثنا مالك بـن أنس عن سمي مولى أبي بكر عن أبي صالح السـمان عن أبي هريرة قال: سمـعت رسول الله ﷺ يقول: «أول مـا خلق الله القلم ثم خلق النون وهي الدواة وذلك قوله تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾ ثم قال له: اكتب قال: وما أكـتب؟ قال: ما كان وما هو كائن إلى يوم القيـامة من عمل أو أجل أو رزق أو أثر فجرى القلم بما هو كائن إلى يـوم القيامة - قال - ثم ختم فم القلم فلم ينطق ولا ينطق إلى يوم القيامة، ثـم خلق العقل فقال الجبار: ما خلقت خلقا أعجب إلي منك، وعزتي وجـلالي لأكملنك فيمن أحببت ولأنقصنك فـيمن أبغضت» قال: ثم قال رسول الله ﷺ: «أكمل الناس عقلا: أطوعهم لله، وأعملهم بطاعته» (٤).

---

(١) الماوردي (٦/ ٥٩) في النكت والعيون.

(٢) قراءة متواترة: تقريب النشر (ص٥٢).

(٣) مرسل غريب: كذا حكم عليه ابن كثير (٨/ ١٤٧)، وقال: «مرسل غريب».
قلت: بل هو موضوع، فلا حجة لأحد فيه؛ لأن متنه منكر، ثم فيه: فرات بن أبي الفرات، وهو ضعيف، وفيه الحسن بن شبيت وهو ضعيف كما رواه الطبري (٢٩/ ١٨) في تفسيره.

(٤) هذا ضعيف جدًا: وما هي إلا إسرائيليـات نقلها المسلمون عن أهل الكتاب، وهذا الكلام وإن صح إسنادًا - ولا يصح - فلا يصح متنًا أبدًا. فـالحوت (ليوثا) و (لوثوثا) أو (بلهموثا) هـذه كلها من ترهات أهل الكتاب =

وعن مجاهد قال: ﴿نٓ﴾ الحوت الذي تحت الأرض السابعة.

قال: ﴿وَٱلْقَلَمِ﴾ الذي كُتب به الذكر.

وكذا قال مقاتل ومُرّة الهمداني وعطاء الخراساني والسدي والكلبي: إن النون هو الحوت الذي عليه الأرضون.

وروى أبو ظبيان عن ابن عباس قال: أول ما خلق الله القلم فجرى بما هو كائن، ثم رفع بخار الماء فخلق منه السماء، ثم خلق النون فبسط الأرض على ظهره، فمادت الأرض فأثبتت بالجبال، وإن الجبال لتفخر على الأرض، ثم قرأ ابن عباس: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾ الآية.

وقال الكلبي ومقاتل: اسمه البهموت [١]، قال الراجز:

مالي أراكم كلكم سكوتا والله ربي خلق البهموتا

وقال أبو اليقظان والواقدي: ليوثا [٢]، وقال كعب [٣]: لوثوثا، وقال[٤]: بلهموثا، وقال كعب: إن إبليس تغلغل إلى الحوت الذي على ظهره الأرضون فوسوس في قلبه.

وقال: أتدري ما على ظهرك يا لوثوثا من الدواب والشجر والأرضين وغيرها، لو لفظتهم ألقيتهم عن ظهرك أجمع؛ فهم ليوثا أن يفعل ذلك، فبعث الله إليه دابة فدخلت منخره ووصلت إلى دماغه، فضج الحوت إلى الله عز وجل منها فأذن الله لها فخرجت.

قال كعب: فوالله إنه لينظر إليها وتنظر إليه إن هم بشيء من ذلك عادت كما كانت [٥].

وقال الضحاك عن ابن عباس:

إن ﴿نٓ﴾ آخر حرف من حروف الرحمن، قال: الر، وحم، ون؛ الرحمن تعالى متقطعة[٦].

وقال ابن زيد: هو قسم أقسم الله تعالى به [٧]، وقال ابن كيسان: هو فاتحة السورة [٨]، وقيل: اسم السورة، وقال عطاء وأبو العالية: هو افتتاح اسمه نصير ونور وناصر [٩].

وقال محمد بن كعب: أقسم الله تعالى بنصره للمؤمنين [١٠]؛ وهو حق، بيانه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧] وقال جعفر الصادق: هو نهر من أنهار الجنة يقال له: نون، وقيل: هو المعروف من حروف المعجم؛ لأنه لو كان غير ذلك لكان معربا؛ وهو اختيار القشيري

=وقد رويت في سفر التكوين (٢/ ١ ـ٢) وهو أحد أسفار التوراة، كما برئت ساحة ابن مسعود وابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ بعد أن أكد ابن كثير (٦/ ٣٦٠) في تفسيره أنها رواية نلقاها المسلمون عن كعب. ثم هي رواية مخالفة لبعض القرآن إذ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ [فاطر: ٤١].

فاضرب عن هذه الأخبار صفحًا.

(١ ـ٥) انظر التخريج السابق.

(٦ ـ ١٠) هذا كله لم يثبت صحته، وقد اتفقت كلمة العلماء والمحققين على أن الحروف المقطعة جاءت لإعجاز بلغاء العرب وفصحائهم، والله أعلم.

أبو نـصر عبد الرحـيم في تفسيره، قال: لأن ﴿نٓ﴾ حرف لم يُعْرَب، فلو كان كلمـة تامة أعرب كما أعرب القلم، فهو إذا حرف هجاء كما في سائر مفاتيح السور، وعلى هذا قيل: هو اسم السورة، أي هذه سورة ﴿نٓ﴾، ثم قال: ﴿وَٱلْقَلَمِ﴾ أقسم بالقلم لما فيه من البيان كاللسان؛ وهو واقع على كل قلم مما يكتب به من في السماء ومن في الأرض؛ ومنه قول أبي الفتح البُسْتيّ:

إِذَا أَقْسَمَ الأَبْطَالُ يَوْماً بِسَيْفِهِمْ وَعَدُّوهُ مما يَكْسِبُ المَجْدَ والكَرَمْ
كَفَى قَلَمُ الكُتَّابِ عِزّاً وَرِفْعَـةً مَدَى الدَّهْرِ أَنَّ اللهَ أَقْسَمَ بِالقَلَمْ

وللشعراء في تفضـيل القلم على السيف أبيات كثيرة؛ ما ذكرناه أعـلاها، وقال ابن عباس: هذا قسم بالقلم الذي خلقه الله؛ فأمـره فجرى بكتابة جميع ما هو كائن إلى يوم القـيامة، قال: وهو قلم من نور طوله كما بين السماء والأرض [١]، ويقال: خلق الله القلم ثم نظر إليه فانشق نصفين، فقال: آجر؛ فقال: يا رب بم أجري؟ قال: بما هو كائن إلى يوم القـيامة؛ فجرى على اللوح المحفوظ، وقال الوليد بن عبـادة بن الصامت: أوصاني أبي عند موته، فقـال: يا بني، اتق الله، واعلم أنك لن تتقي ولن تبلغ العلم حتى تؤمن بالله وحـده، والقدر خيره وشـره، سمعت النبي ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب فقال: يا رب وما أكـتب؟ فقال: اكتب القدر، فجرى القلم في تلك الساعة بما كان وما هو كائن إلى الأبد» [٢] وقال ابن عباس: أول ما خلق الله القلم فأمره أن يكـتب ما هو كائن؛ فكتب فـيما كتب: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ [المسد: ١] [٣]، وقـال قـتادة: القـلم نعمـة من الله تعالى على عـباده [٤]، قال غيـره: فخلق الله القلم الأول فكتـب ما يكـون في الذكـر ووضعه عنـده فـوق عـرشه، ثم خلق القلم الـثاني ليكـتب به في الأرض؛ على مـا يأتي بيـانه في سـورة: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١].

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ أي وما يكتبون، يريد الملائكة يكتـبون أعمال بني آدم [٥]؛ قاله ابن عباس. وقيـل: ومـا يكـتبون أي النـاس ويتفاهمون به، وقـال ابن عـباس: ومعنى: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ وما يعلمون [٦]، و﴿مَا﴾ موصولة أو مصـدرية؛ أي ومسطوراتهم أو وسطرهم، ويراد به كـل من يسطر أو الحفظة؛ على الخلاف، ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ هذا جـواب القسم وهو نفي، وكان المشركون يقولون للنبي ﷺ إنه مجنون، وبه شـيطان، وهـو قولهـم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦]، فأنـزل الله تعالى ردا عليهـم وتكذيبـا لقولهـم: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ أي: برحـمة ربك، والنعمة ها هنا الرحمة، ويحتمل ثانيا: أن الـنعمة ها هنا قسم؛ وتقديره: ما أنت ونعمة ربك بمجنون؛ لأن الواو والباء من حـروف القسم، وقيل: هو كـما تقول: ما أنت بمجنون، والحـمد لله،

(١) هذا أيضًا ضعيف كـسابقه: البغوي (٨/ ١٧٨) في تفسـيره. وقد رواه الطبري دون زيادة «من نور» (٢٩/ ١٩) في تفسيره.

(٢) صحيح: أبو داود (٤٧٠٠) في السُّنة، وصحَّحه الألباني هناك، ورواه أحمد (٥/ ٣١٧) في المسند.

(٣) لم يرد به نصٌ صحيح فهو ضعيف منكر.

(٤) هذا معنى صحيح، والله أعلم.

(٥، ٦) زاد المسير (٦/ ٥٥) لابن الجوزي.

وهو منقطع بين علي بن أبي طلحة وابن عباس بلفظ: «ويكتبون»، والطبري (٢٩/ ٢٠) في تفسيره.

وقيل: مـعناه : ما أنت بمجنون، والنعمة لـربك؛كقولهم: سبـحانك اللهم وبحمدك؛ أي: والحـمد لله، ومنه قول لبيد:

وأفردتُ فِي الدُّنْيَا بِفَقْدِ عَشِيرَتِي وَفَارَقَنِي جَارٌ بِأَرْبَدَ نَافِعُ

أي: وهو أربد ،وقال النابغة:

لَمْ يُحْرَمُوا حُسْنَ الغذَاء وأُمُّهُمْ طَفَحَتْ عَلَيْكَ بِنَاتِقٍ مِذْكَارِ

أي: هو ناتق، والباء في ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ متعلقة﴿بِمَجْنُونٍ﴾ منفيا؛ كما يتعلق بغافل مثبتا، كما في قولك: أنت بنعـمة ربك غافل،ومحله النصب على الحـال؛ كأنه قال: ما أنت بمجنون منعـما عليك بذلك، ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا﴾ أي: ثوابا على ما تحملت من أثقال النبوة،﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير مقطوع ولا منقوص؛ يقال: مننت الحبل: إذا قطعته،وحبل منين إذا كان غير متين، قال الشاعر:

غُبْسا كَوَاسِبَ لا يُمَنّ طَعَامُهَا

أي: لا يقطع،وقال مجاهد:﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ محسوب [١]،الحسن:﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ غير مكدر بالمن. الضحاك: أجرا بغـير عمل، وقيل: غير مقدر وهـو التفضل؛ لأن الجزاء مقدر والتفضل غـير مقدر؛ ذكره الماوردي [٢]،وهو معنى قول مجاهد.

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾

فيه مسألتان :

الأولى : قوله تـعالى:﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ قال ابن عـباس ومجـاهد: على خُلُقٍ، على دين عظيم من الأديان [٣]، ليس دين أحب إلى الله تعالى ولا أرضى عنده منه، وفي صـحيح مسلم عن عائشة: أن خلقـه كان القرآن [٤]،وقال علي رضي الله عنه وعطيـة: هو أدب القرآن [٥]،وقيل: هو رفقه بأمته وإكرامه إياهم،وقال قتادة: هو ما كان يأمر به من أمر الله وينتهي عنه مما نهى الله عنه[٦]، وقيل: أي: إنك على طبع كريم. الماوردي: وهـو الظاهر، وحقيقة الخُلُق في اللغـة: هو ما يأخذ به الإنسان نفسه من الأدب يسمى خلقا؛ لأنه يصير كالخلقـة فيه، وأما ما طبع عليه من الأدب فهو الخيم «بالكسـر»: السجيـة والطبيـعـة، لا واحد له من لفظـه، وخيم: اسم جـبل، فـيكون الخلق الطبع المتكلف،والخيم الطبع الغريزي،وقد أوضح الأعشى ذلك في شعره فقال:

وإِذَا ذُو الفُضُولِ ضَنَّ عَلَى المَوْلَى وَعَادَتْ لَخِيمِهَا الأَخْلاقُ

أي: رجعت الأخلاق إلى طبائعها .

---

(١) صحيح إلى مجاهد : الطبرى (٢٩/ ٢٠) في تفسيره .

(٢) النكت والعيون (٦/ ٦١).

(٣) ضعيف إلى ابن عباس، وصحيح إلى مجاهد : الطبري من طريق العوفيين (٢٩/ ٢١) في تفسيره.

(٤) صحيح : مسلم (٧٤٦) في صلاة المسافرين .

(٥) النكت والعيون (٦/ ٦١) .

(٦) إنَّما هو عن الضحاك كما عند الطبري (٢٩/ ٢٢) في تفسيره ،ورواه البغوي (٨/ ١٨٨) في تفسيره عن قتادة .

قلت: ما ذكـرته عن عائشـة في صحيح مـسلم أصح الأقوال، وسـئلت أيضا عن خلقـه عليه السلام؛ فقرأت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١] إلى عشر آيات[١]، وقالت: ما كان أحد أحسن خلقا من رسول الله ﷺ، ما دعـاه أحد من الصحابة ولا من أهل بيـته إلا قال: لبـيك، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [٢]، ولم يُذْكَر خلق مـحمـودٌ إلا وكان للنبي ﷺ منه الحظ الأوفر، وقال الجنيد: سمي خلقه عظيما؛ لأنه لم تكن له همـة سوى الله تعالى، وقيل: سمي خلقه عظيما؛ لاجتماع مكارم الأخلاق فيه؛ يدل عليـه قوله عليه السلام: «إن الله بعثني لأتمم مكارم الأخلاق»[٣]، وقيل: لأنه امـتثل تأديب الله تـعالى إياه بقولـه تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وقد روي عنه عليه السلام أنه قـال: «أدبني ربي تأديبا حسنا إذ قال: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] فلما قبلت ذلك منه قال: ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾»[٤].

الثانـية: روى الترمـذي عن أبي ذر قال: قـال رسول الله ﷺ: « اتق الله حيثـما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن» ، قال: حديث حـسن صحيح[٥]، وعن أبي الدرداء؛ أن النبي ﷺ قال: «ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، وإن الله تعالى ليبغض الفاحش البذيء» ، قال: حـديث حسن صحيح[٦] ، وعنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «ما من شيء يوضع في الميزان أثـقل من حسن الخلق ،وإن صاحب حـسن الخلـق ليبلـغ به درجـة صاحب الصلاة والصـوم» [٧]، قال: حديث غريب من هذا الوجـه، وعن أبي هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ عن أكثر مـا يدخل الناس الجنة؟ فقال: «تقـوى الله ،وحسن الخلق»، وسئل عن أكثـر ما يدخل الناس النار؟ فقال: «الفم والفرج» [٨] قال: هذا حديث صحيح غريب، وعن عبد الله بن المبارك أنه وصف حسن الخلق فقال: هو بسط الوجـه، وبذل المعروف، وكف الأذى،وعن جابر. أن رسول الله ﷺ قـال: «إن من أحبكم إلي وأقـربكم مني مجـلسا يوم القـيامـة أحسنكم أخـلاقا » قـال :« وإن أبغضكم إلي وأبعـدكم مني مجلسا يوم القيامـة الثرثارون والمتشدقـون والمتفيهقـون»، قالوا: يا رسول

(١ ، ٢) واه : الواحدى (ص٣٧٨) في أسباب النزول وفيـه حسين بن علوان الكوفي : كذاب في روايته عن هشام بن عروة والأعمش ، وتركـه النسائي ، وأبو حاتم ، وقال الأزدي :« كـذاب خبيث لا يكتب حديـثه ، وقال ابن حبان: كان يضع الحديث على الثقـات » المجروحين (١/ ٢٤٤) لابن حبان ، وعزاه السيوطي (ص٤٢٨) لأبي نعيم في الدلائل بسنده .

(٣) صحيح : ولفظه « إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق » وانظر :صحيح الجامع (٢٣٤٩) للألباني ـ رحمه الله .

(٤) ضعيف : مـرسل من طريق الزهري عن ابن عـاكر ،موصـول عن ابن مسعود من رواية ابن الـسمعاني ، انظر: ضعيف الجامع (٢٤٩، ٢٥٠) للألباني ـ رحمه الله.

(٥) حسن صحـيح : الترمذي (١٩٨٧) في البر والصلة ، والدارمي (٢٧٩١) في سننه ، وهـو عن معاذ ـ رضي الله عنه ـ أيضًا .

(٦) صحيح : أبو داود (٤٧٩٩) في الأدب ، والترمذي (٢٠٠٢) في البر والصلة ، وصححه الألباني هناك .

(٧) صحيح : الترمذي (٢٠٠٣) في البر والصلة وصححه الألباني هناك .

(٨) حسن : الترمذي (٢٠٠٤) في البر والصلة ،وحسنه الألباني هناك .

الله، قد علمنا الثرثارون والمتشدقون، فما المتفيهقون؟ قال: «المتكبرون»، قال: وفي الباب عن أبي هريرة وهذا حديث حسن غريب من هذا الوجه (١).

﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝ بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ ۝ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ قال ابن عباس: معناه: فستعلم ويعلمون يوم القيامة (٢)، وقيل: فسترى ويرون يوم القيامة حين يتبين الحق والباطل، ﴿بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ الباء زائدة (٣)؛ أي: فستبصر ويبصرون أيكم المفتون، أي: الذي فتن بالجنون (٤)؛ كقوله تعالى: ﴿تَنبُتُ بِالدُّهْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠] و﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦]، وهذا قول قتادة وأبي عبيد والأخفش، وقال الراجز:

نَحْنُ بَنُو جَعْدَةَ أَصْحَابُ الْفَلَجِ نَضْرِبُ بِالسَّيْفِ وَنَرْجُو بِالْفَرَجِ

وقيل: الباء ليست بزائدة؛ والمعنى: ﴿بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ أي: الفتنة، وهو مصدر على وزن المفعول، ويكون معناه الفتون؛ كما قالوا: ما لفلان مجلود ولا معقول؛ أي: عقل ولا جلادة، وقاله الحسن والضحاك وابن عباس (٥)، وقال الراعي:

حتّى إذا لم يتركُوا لعظامه لحمًا ولا لفؤاده مَعْقولا

أي: عقلا، وقيل: في الكلام تقدير حذف مضاف؛ والمعنى: بأيكم فتنة المفتون، وقال الفراء: الباء بمعنى في؛ أي: فستبصر ويبصرون في أي: الفريقين المجنون؛ أبالفرقة التي أنت فيها من المؤمنين أم بالفرقة الأخرى، والمفتون: المجنون الذي فتنه الشيطان، وقيل: المفتون المعذب، من قول العرب: فتنت الذهب بالنار إذا حميته، ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات: ١٣] أي: يعذبون.

ومعظم السورة نزلت في الوليد بن المغيرة وأبي جهل، وقيل: المفتون هو الشيطان؛ لأنه مفتون في دينه، وكانوا يقولون: إن به شيطانا، وعنوا بالمجنون هذا؛ فقال الله تعالى: فسيعلمون غدا بأيهم المجنون؛ أي: الشيطان الذي يحصل من مسه الجنون واختلاط العقل، ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ﴾ أي: إن الله هو العالم بمن حاد عن دينه، ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أي: الذين هم على الهدى فيجازي كلا غدا بعمله.

﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ۝﴾

نهاه عن مسايلة المشركين؛ وكانوا يدعونه إلى أن يكف عنهم ليكفوا عنه، فبين الله تعالى أن

(١) صحيح: الترمذي (٢٠١٨) في البر والصله، وصححه الألباني والثرثارون. في النهاية (١/ ٢٠٩): هم من يكثرون الكلام تكلفًا وخروجًا عن الحق، والثرثرة. كثرة الكلام وترديده.
والمتشدقون: المتوسعون في الكلام من غير احتياط أو احتراز.
وقيل: المستهزئ بالناس يلوي شدقه - جانب الفم - بهم وعليهم اللسان «شدق».

(٢) انظر: المحرر الوجيز (٦/ ٣٩٤) بنحوه.
وهو مروى عن الضحاك كما عند الطبري (٢٩/ ٢٢)

(٣) سبق التنبيه على أنه لا يوجد شيء زائد في القرآن.

(٤، ٥) ضعيف: من رواية العوفي، عن ابن عباس كما عند الطبري (٢٩/ ٢٢) في تفسيره، وابن الجوزي (٦/ ٥٦) في زاد المسير

مماثلتهم كفر، وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤]، وقيل: أي: فلا تطع المكذبين فيما دعوك إليه من دينهم الخبيث، نزلت في مشركي قريش حين دعوه إلى دين آبائه.

﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ ﴾

قال ابن عباس وعطية والضحاك والسدي: ودوا لو تكفر فيتمادون على كفرهم (١)، وعن ابن عباس أيضا: ودوا لو ترخص لهم فيرخصون لك (٢)، وقال الفراء والكلبي: لو تلين فيلينون لك (٣)، والادهان: التليين لمن لا ينبغي له التليين؛ قاله الفراء، وقال مجاهد: المعنى: ودوا لو ركنت إليهم وتركت الحق فيمالئونك، وقال الربيع بن أنس: ودوا لو تكذب فيكذبون (٤)، وقال قتادة: ودوا لو تذهب عن هذا الأمر فيذهبون معك (٥)، الحسن: ودوا لو تصانعهم في دينك فيصانعونك في دينهم (٦)، وعنه أيضا: ودوا لو ترفض بعض أمرك فيرفضون بعض أمرهم (٧)، زيد بن أسلم: لو تنافق وتراثي فينافقون ويراؤون (٨)، وقيل: ودوا لو تضعف فيضعفون؛ قاله أبو جعفر، وقيل: ودوا لو تداهن في دينك فيداهنون في أديانهم (٩)؛ قاله القتبي، وعنه: طلبوا منه أن يعبد آلهتهم مدة ويعبدوا إلهه مدة، فهذه اثنا عشر قولا. ابن العربي: ذكر المفسرون فيها نحو عشرة أقوال كلها دعاوى على اللغة والمعنى، أمثلها قولهم: ودوا لو تكذب فيكذبون، ودوا لو تكفر فيكفرون.

قلت: كلها إن شاء الله تعالى صحيحة على مقتضى اللغة والمعنى؛ فإن الادهان: اللين والمصانعة، وقيل: مجاملة العدو مماثلته، وقيل: المقاربة في الكلام والتليين في القول، قال الشاعر:

لِبَعْضِ الغَشْمِ أَحْزَمَ فِي أُمُورٍ ... تَنُوبُكَ مِنْ مُدَاهَنَةِ العَدُوِّ

وقال المفضل: النفاق وترك المناصحة، فهي على هذا الوجه مذمومة، وعلى الوجه الأول غير مذمومة، وكل شيء منها لم يكن. قال المبرد: يقال: أدهن في دينه وداهن في أمره؛ أي: خان فيه وأظهر خلاف ما يضمر، وقال قوم: داهنت بمعنى واريت، وأدهنت بمعنى غششت؛ قاله الجوهري، وقال: ﴿فَيُدْهِنُونَ﴾ فساقه على العطف، ولو جاء به جواب النهي لقال: فيدهنوا، وإنما أراد: إن تمنوا لو فعلت فيفعلون مثل فعلك؛ عطفا لا جزاء عليه ولا مكافأة، وإنما هو تمثيل وتنظير.

﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ ﴾

يعني الأخنس بن شريق في قول الشعبي والسدي وابن إسحاق (١٠)، وقيل: الأسود بن عبد

(١) ضعيف إلى ابن عباس: الطبري (٢٩ في تفسيره من طريق العوفيين، وانظر الباقي هناك إلا السدي فانظره: بنحوه في زاد المسير (٦/ ٥٦) لابن الجوزي.

(٢) ضعيف: منقطع بين علي بن أبي طلحة الوالبي، وابن عباس - رضي الله عنهما - كما في تفسير الطبري (٢٩/ ٢٤).

(٣ - ٩) زاد المسير (٦/ ٥٧)، وذكره الطبري أثر قتادة ومجاهد (٢٩/ ٢٤).

(١٠) زاد المسير (٦/ ٥٧) لابن الجوزي.

يغوث، أو عبد الرحمن بن الأسود؛ قاله مجاهد [١]، وقيل: الوليد بن المغيرة، عرض على النبي ﷺ مالا وحلف أن يعطيه إن رجع عن دينه [٢]؛ قاله مقاتل، وقال ابن عباس: هو أبو جهل بن هشام [٣]، والحلاف: الكثير الحلف، والمهين: الضعيف القلب؛ عن مجاهد [٤]. ابن عباس: الكذاب، والكذاب مهين [٥]، وقيل: المكثار في الشر؛ قاله الحسن [٦].وقتادة، وقال الكلبي: المهين الفاجر العاجز [٧]، وقيل: معناه الحقير عند الله، وقال ابن شجرة: إنه الذليل، الرماني: المهين الوضيع لإكثاره من القبيح، وهو فعيل من المهانة بمعنى القلة، وهي هنا القلة في الرأي والتمييز، أو هو فعيل بمعنى مفعل؛ والمعنى مهان، ﴿هَمَّازٍ﴾ قال ابن زيد: الهماز الذي يهمز الناس بيده ويضربهم، واللماز باللسان، وقال الحسن: هو الذي يهمز ناحية في المجلس؛ كقوله تعالى: ﴿هُمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]، وقيل: الهماز : الذي يذكر الناس في وجوههم، واللماز : الذي يذكرهم في مغيبهم؛ قاله أبو العالية وعطاء بن أبي رباح والحسن أيضا [٨]، وقال مقاتل ضد هذا الكلام: إن الهمزة :الذي يغتاب بالغيبة ، واللمزة : الذي يغتاب في الوجه [٩]،وقال مرة: هما سواء،وهو القتات الطعان للمرء إذا غاب، ونحوه عن ابن عباس وقتادة [١٠]، قال الشاعر:

تُدْلِي بِودٍّ إِذَا لاَقَيْتَنِي كَذِبًا وَإِنْ أَغِبْ فَأَنْتَ الهَامِزُ اللُّمَزة

﴿مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ أي: يمشي بالنميمة بين الناس ليفسد بينهم، يقال: نَمَّ يَنِمُّ نَمًا ونَمِيمًا ونَمِيمةً؛ أي: يمشي ويسعى بالفساد، وفي صحيح مسلم عن حذيفة أنه بلغه أن رجلاً ينم الحديث، فقال حذيفة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة نمام» [١١]، وقال الشاعر:

وَمَوْلَى كَبِيتِ النَّمْلِ لاَ خَيْرَ عِنْدَهُ لِمَوْلاَهُ إِلاَّ سَعْيُهُ بِنَمِيم

قال الفراء: هما لغتان،وقيل: النميم جمع نميمة،﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ أي: للمال أن ينفق في وجوهه، وقال ابن عباس: يمنع عن الإسلام ولده وعشيرته [١٢]،وقال الحسن: يقول لهم: من دخل منكم في دين محمد لا أنفعه بشيء أبدا [١٣]،﴿مُعْتَدٍ﴾ أي: على الناس في الظلم متجاوز للحد، صاحب باطل،﴿أَثِيمٍ﴾ أي: ذي إثم، ومعناه أثوم، فهو فعيل بمعنى فعول،﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾ العتل الجافي الشديد في كفره، وقال الكلبي والفراء: هو الشديد الخصومة بالباطل، وقيل: إنه الذي يعتل الناس فيجرهم إلى حبس أو عذاب، مأخوذ من العتل وهو الجر؛ومنه قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ﴾ [الدخان: ٤٧]، وفي الصحاح: وعتلت الرجل أعتله وأعتله : إذا جذبته جذبا عنيفا، ورجل معتل

(١ ـ ٣) زاد المسير (٦/ ٥٧) لابن الجوزي.

(٤) صحيح إلى مجاهد : الطبري (٢٩/ ٢٥) في تفسيره .

(٥) ضعيف : الطبري(٢٩/ ٢٥) في تفسيره من طريق العوفيين.

(٦، ٧) صحيح : الطبري (٢٩/ ٢٥) في تفسيره .

(٨ ـ ١٠) انظر السابق .وأثر ابن عباس ضعيف لكونه من طريق العوفيين ، كما عند الطبري (٢٩/ ٢٥، ٢٦).

(١١) صحيح : مسلم (١٠٥) في الإيمان ،وفي بعض طرقه:« لا يدخل الجنة قتات ».

(١٢، ١٣) زاد المسير (٦/ ٥٧) لابن الجوزي .

«بالكسر»، وقال يصف فرسا:

نَفْرَعُهُ فَرْعًا وَلَسْنَا نَعْتِلُهُ

قال ابن السكيت: عـتله وعتنه، باللام والنون جميـعا، والعتل: الغليظ الجافي، والـعتل أيضا: الرمح الغليظ، ورجل عِتل بالكسر بَيِّنُ العتل؛ أي: سـريع إلى الشر، ويقال: لا أنعتل معك؛ أي: لا أبرح مكاني، وقال عبيـد بن عمير: العتل: الأكول الشروب القـوي الشديد يوضع في الميزان فلا يزن شعيرة؛ يدفع المـلك من أولئك في جهنم بالدفعة الواحدة سبـعين ألفا، وقال علي بن أبي طالب والحسن: العتل: الفاحش السيئ الخلق [١]، وقال معمر: هو الفاحش اللئيم [٢]، وقال الشاعر:

بِعُتُلٍّ مِنَ الرِّجَالِ زَنِيمُ غَيْرُ ذِي نَجْدَةٍ وَغَيْرُ كَرِيمِ

وفي صحيح مـسلم عن حارثة بن وهب سمع النبي ﷺ قال: «ألا أخبـركم بأهل الجنة» قالوا بلى قال: «كل ضعيف متضعف لـو أقسم على الله لأبره، ألا أخبركم بأهل النار» قالوا: بلى قال: «كل عتل جواظ مستكبـر»، وفي رواية عنه: «كل جواظ زنيم متكبر» [٣]، الجواظ: قيل هو الجموع المنوع، وقيل: الكثيـر اللحم المختال في مشيته، وذكـر الماوردي [٤] عـن شـهر بـن حوشـب عـن عبد الرحمن ابن غنـم، ورواه ابن مسعود، أن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة جواظ ولا جعظري ولا العتل الزنيم»، فقـال رجل: ما الجواظ؟ وما الجعظري؟ وما العتل الزنـيم؟ فقال رسول الله ﷺ: «الجـواظ الذي جمع ومنع، والجـعظري: الغليظ، والعـتل: الزنيم الشـديد الخلق الرحيب الجـوف المصحح الأكول الشـروب الواجد للطعام الظلوم للناس» [٥]، وذكره الثعلبي عن شداد بن أوس: «لا يدخل الجنة جواظ ولا جـعظري ولا عتل زنيم» سـمعتـهن من النبي ﷺ قلت: وما الجـواظ؟ قال: الجمـاع المناع، قلت: ومـا الجعظري؟ قـال: الفظ الغليظ، قلت: وما العـتل الزنيم؟ قال: الـرحيب الجوف الوثير الخلق الأكول الشروب الغشوم الظلوم [٦].

قلت: فهذا التفسير من النبي ﷺ في العتل قد أربى على أقوال المفـسرين، ووقع في كتاب أبي داود في تفسيـر الجواظ أنه الفظ الغليظ، ذكره من حديث حارثة بن وهب الخـزاعي قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة الجواظ ولا الجعظري» [٧]. قال: والجواظ: الفـظ الغليظ، ففيه تفـسيران مـرفـوعان حـسب مـا ذكـرناه أولا، وقـد قيل: إنـه الجافي الـقلب، وعن زيد بن أسلم في قـوله تعالى: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾ قال: قال النبي ﷺ: «تبكي السماء من رجل أصح الله جـسمه ورحب جوفه وأعطاه مـن الدنيا بعضا، فكان للناس ظلومـا، فذلك العتل الزنيم، وتبكي السمـاء من الشيخ

(١، ٢) زاد المسير (٦/ ٥٧) لابن الجوزي.

(٣) متفق عليه: البخاري (٦٦٥٧) في الأدب، ومسلم (٢٨٥٣) في الجنة وصفة نعيمها.

(٤) الماوردي (٦/ ٦٤، ٦٥) في النكت والعيون.

(٥) ضعيف: أحمد (٤/ ٢٢٧) في المسند وفيه شهر بن حوشب، وهو مـختلف في توثيقه كما أن عبد الرحمن ابن غنم مختلف في صحبته، وانظر الهيثمي (٤/ ٣٢٧).

(٦) ذكره الهيثمي (١٠/ ٢٦٥) في المجمع من رواية أبي هريرة وغيره وليس فيه شداد ـ رضي الله عنه.

(٧) صحيح: أبو داود (٤٨٠١) في الأدب، وصححه الألباني هناك.

معنى ﴿بِبُهْتَانٍ﴾ بولد ﴿يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ﴾ ما أخذته لقيطا، ﴿وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ ما ولدته من زنا، وقد تقدم.

السادسة : قوله تعالى: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ في البخاري عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ قال: إنما هو شرط شرطه الله للنساء [(١)]، واختلف في معناه على ما ذكرنا، والصحيح أنه عام في جميع ما يأمر به النبي ﷺ وينهى عنه؛ فيدخل فيه النوح وتخريق الثياب وجز الشعر والحلوة بغير محرم إلى غير ذلك، وهذه كلها كبائر ومن أفعال الجاهلية، وفي صحيح مسلم عن أبي مالك الأشعري أن النبي ﷺ قال: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية» فذكر منها النياحة[(٢)]، وروى يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة ، قال: قال رسول الله ﷺ: «هذه النوائح يجعلن يوم القيامة صفين صفا عن اليمين وصفا عن اليسار ينبحن كما تنبح الكلاب في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ثم يؤمر بهن إلى النار» [(٣)]، وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تصلي الملائكة على نائحة ولا مرنة» [(٤)]، وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع نائحة فأتاها فضربها بالدرة حتى وقع خمارها عن رأسها، فقيل: يا أمير المومنين، المرأة المرأة! قد وقع خمارها، فقال: إنها لا حرمة لها، أسند جميعه الثعلبي رحمه الله، أما تخصيص قوله: ﴿فِي مَعْرُوفٍ﴾ مع قوة قوله: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ﴾ ففيه قولان: أحدهما: أنه تفسير للمعنى على التأكيد؛ كما قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾ [الأنبياء: ١١٢] لأنه لو قال احكم لكفى، الثاني: إنما شرط المعروف في بيعة النبي ﷺ حتى يكون تنبيها على أن غيره أولى بذلك وألزم له وأنفى للإشكال.

السابعة : روى البخاري عن عبادة بن الصامت ، قال: كنا عند النبي ﷺ فقال: «أتبايعوني على ألا تشركوا بالله شيئا ولا تزنوا ولا تسرقوا» قرأ آية النساء، وأكثر لفظ سفيان قرأ في الآية: «فمن وفى منكم فأجره على الله ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب فهو كفارة له ومن أصاب من ذلك شيئا فستره الله فهو إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له منها» [(٥)]، وفي الصحيحين عن ابن عباس قال: شهدت الصلاة يوم الفطر مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان؛ فكلهم يصليها قبل الخطبة ثم يخطب؛ فنزل نبي الله ﷺ فكأني انظر إليه حين يجلس الرجال بيده، ثم أقبل يشقهم حتى أتى النساء مع بلال فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ ، حتى فرغ من الآية كلها، ثم قال حين فرغ : «أنتن على ذلك»؟ فقالت: امرأة واحدة لم يجبه غيرها: نعم يا رسول الله؛ لا يدري الحسن من هي، قال: «فتصدقن» وبسط بلال ثوبه فجعلن يلقين الفتخ والخواتيم في ثوب بلال [(٦)]، لفظ

(١) صحيح : البخاري (٤٨٩٣) في التفسير متفردًا به عن مسلم .

(٢) صحيح : مسلم (٩٣٤) في الجنائز .

(٣) ضعيف : الهيثمي (٣/ ١٤) في المجمع وعزاه للطبراني في الأوسط ،وفيه سليمان بن داود اليمامي : وهو ضعيف.

(٤) ضعيف: الهيثمي (٣/١٣) في المجمع وعزاه لأحمد ، وأبي يعلى ، وقال : وفيه أبو مراتة ولم أجد من وثقه أو جرحه وبقية رجاله ثقات» ، وقال المنذري (٤/ ١٨٤) في الترغيب : إسناده حسن ـ إن شاء الله .

(٥) سبق تخريجه .

(٦) متفق عليه: البخاري (٤٨٩٥) في التفسير، ومسلم (٨٨٤) في صلاة العيدين. والفتخ : بفتحتين: جمع فتخة ،=

من أين قاله، ومعظم المفسرين على أن هذا نزل في الوليد بن المغيرة، وكان يطعم أهل منى حيسا[١] ثلاثة أيام، وينادي: ألا لا يوقدن أحد تحت برمة، ألا لا يدخن أحد بكرع، ألا ومن أراد الحيس فليأت الوليد بن المغيرة، وكان ينفق في الحجة الواحدة عشرين ألفا وأكثر، ولا يعطي المسكين درهما واحدا، فقيل: ﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ﴾، وفيه نزل: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ۝٦ الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [فصلت]، وقال محمد بن إسحاق: نزلت في الأخنس بن شريق، لأنه حليف ملحق في بني زهرة، فلذلك سمي زنيما، وقال ابن عباس: في هذه الآية نعت، فلم يعرف حتى قتل فعرف، وكان له زنمة في عنقه معلقة يعرف بها[٢]، وقال مُرَّة الهمداني: إنما ادعاه أبوه بعد ثماني عشرة سنة[٣].

﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۝١٥﴾

قوله تعالى: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ قرأ أبو جعفر وابن عامر وأبو حيوة والمغيرة والأعرج: «آن كان» بهمزة واحدة ممدودة على الاستفهام، وقرأ المفضل وأبو بكر وحمزة: ﴿أأن كان﴾ بهمزتين محققتين، وقرأ الباقون بهمزة واحدة على الخبر؛ فمن قرأ بهمزة مطولة أو بهمزتين محققتين فهو استفهام والمراد به التوبيخ، ويحسن له أن يقف على ﴿زنيم﴾، ويبتدئ ﴿أَن كَانَ﴾ على معنى ألأن كان ذا مال وبنين تطيعه، ويجوز أن يكون التقدير: ألأن كان ذا مال وبنين يقول: إذا تتلى عليه آياتنا: أساطير الأولين، ويجوز أن يكون التقدير: ألأن كان ذا مال وبنين يكفر ويستكبر، ودل عليه ما تقدم من الكلام فصار كالمذكور بعد الاستفهام، ومن قرأ: ﴿أَن كَانَ﴾ بغير استفهام فهو مفعول من أجله والعامل فيه فعل مضمر، والتقدير: يكفر لأن كان ذا مال وبنين، ودل على هذا الفعل: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ولا يعمل في ﴿أَن﴾ ﴿تُتْلَىٰ﴾ ولا ﴿قَالَ﴾ لأن ما بعد ﴿إِذَا﴾ لا يعمل فيما قبلها؛ لأن ﴿إِذَا﴾ تضاف إلى الجمل التي بعدها، ولا يعمل المضاف إليه فيما قبل المضاف، و﴿قَالَ﴾ جواب الجزاء ولا يعمل فيما قبل الجزاء إذ حكم العامل أن يكون قبل المعمول وحكم الجواب أن يكون بعد الشرط فيصير مقدما مؤخرا في حال، ويجوز أن يكون المعنى لا تطعه؛ لأن كان ذا يسار وعدد، قال ابن الأنباري: ومن قرأ بلا استفهام لم يحسن أن يقف على ﴿زنيم﴾؛ لأن المعنى لأن كان وبأن كان، «فأن» متعلقة بما قبلها، قال غيره: يجوز أن تتعلق بقوله: ﴿مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ والتقدير: يمشي بنميم لأن كان ذا مال وبنين، وأجاز أبو علي أن يتعلق «بعتل»، وأساطير الأولين: أباطيلهم وترهاتهم وخرافاتهم، وقد تقدم.

﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ۝١٦﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿سَنَسِمُهُ﴾ قال ابن عباس: معنى ﴿سَنَسِمُهُ﴾: سنخطمه بالسيف، قال: وقد

(١) الحيس: في اللسان: الأقط مخلوط بالتمر والسمن.

(٢) بنحوه عند الطبري من طريق العوفيين (٢٩/ ٢٨) في تفسيره، وذكره البغوي (٨/ ١٩٣) في تفسيره.

(٣) ذكره البغوي (٨/ ١٩٣) في تفسيره.

خطم الذي نزلت فيه يوم بدر بالسيف؛ فلم يزل مخطوما إلى أن مات [١]، وقال قتادة: سنسمه يوم القيامـة على أنفه سمة يعـرف بها؛ يقال: وسمـته وَسْمًا وَسِمَـة إذا أثرت فيه بسمـة وكي، وقد قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦] فهذه علامـة ظاهرة، وقال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢] وهذه علامـة أخرى ظاهرة، فأفـادت هذه الآية علامـة ثالثة وهي: الوسم على الأنف بالنار؛ وهذا كقـوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾ [الرحمن: ٤١] قاله الكلبي وغيـره، وقال أبو العالية ومـجاهد: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ أي: على أنفه،ونسود وجـهه في الآخرة فيعرف بسواد وجهه، والخرطوم: الأنف من الإنسـان، ومن السباع: موضع الشفة، وخراطيم القوم: ساداتهم، قال الفراء: وإن كان الخرطوم قد خص بالسـمة فإنه في معنى الوجه؛ لأن بعض الشيء يعبر به عن الكل، وقال الطبري: نبين أمره تبيانا واضحا حتى يعرفوه فلا يخفى عليهم كما لا تخفى السمة على الخراطيم، وقـيل: المعنى سنلحق به عارا وسبة حـتى يكون كمن وسم على أنفه، قـال القتبي: تقول العرب للرجل يسب سبة سوء قبيحة باقية: قد وسم ميسم سوء ؛ أي: ألصق به عار لا يفارقه؛ كما أن السمة لا يمحى أثرها، قال جرير:

لَمَّا وَضَعْتُ عَلَى الفَرزْدَقِ مِيْسَمِي وَعَلى البَعِيثِ جَدَعْتُ أَنْفَ الأَخْطَلِ

أراد به الهجاء ، قـال: وهذا كله نزل في الوليد بن المغيرة ،ولا نعلم أن اللـه تعالى بلغ من ذكر عيوب أحد ما بلغه منه؛ فألحقه به عارا لا يفارقه في الدنيا والآخرة ؛ كالوسم على الخرطوم، وقيل: هو ما ابتلاه الله به في الدنيا في نفسه وماله وأهله من سوء وذل وصغار؛ قاله ابن بحـر، واستشهد بقول الأعشى:

فَدَعْهَا وَمَا يُغْنِيكَ وَاعْمِدْ لِغَيْرِهَا بِشِعْرِكَ وَاعْلُبْ أَنْفَ مَنْ أَنْتَ وَاسِمُ

وقال النضر بن شميل: المعنى سنحده على شرب الخمـر، والخرطوم: الخمر، وجمعه خراطيم، قال الشاعر:

تَظَلُّ يَوْمَكَ فِي لَهْوٍ وَفِي طَرَبٍ وَأَنْتَ بِاللَّيْلِ شَرَّابُ الخَرَاطِيمِ

قال الراجز:

صَهْبَاءُ خُرْطُومًا عُقَارًا قَرْقَفَا

وقال آخر:

أَبَا حَاضِرٍ مَنْ يَزْنِ يُعْرَفْ زِنَاؤُهُ وَمَنْ يَشْرَبْ الخُرْطُومَ يُصْبِحْ مُسْكِرا

الثانية : قال ابن العربي[٢] : كان الوسم في الوجـه لذي المعصية قـديما عند الناس، حتى أنه روي - كما تقدم - أن اليهود لما أهملوا رجم الزاني اعـتاضوا منه بالضرب وتحميم الوجه [٣]؛ وهذا

(١) ضعيف : الطبري (٢٩/ ٣١) في تفسيره من طريق العوفيين .

(٢) أحكام القرآن (٤/ ١٨٥٧) للقاضي ابن العربي المالكي .

(٣) تحميم الوجه : تغييره بالفحم وتسويده. اللسان« حمم».

وضع باطل، ومن الوسم الصحيح في الـوجه: ما رأى العلماء من تسويد وجه شـاهد الزور، علامة على قـبح المعصـية وتشـديدا لمن يتعـاطاها لغيـره ممن يرجى تجنبه بما يرجى من عـقوبة شـاهد الزور وشهرته؛ فـقد كان عزيزا بقـول الحق وقد صار مهـينا بالمعصية، وأعظم الإهانة إهانة الـوجه، وكذلك كانت الاستهانة به في طاعة الله سببا لخيرة الأبد والتحريم له على النار؛ فإن الله تعالى قد حرم على النار أن تأكل من ابن آدم أثر السجود؛ حسب ما ثبت في الصحيح.

﴿ إِنَّا بَلَوْنَـٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَـٰٓئِمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى : قوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ﴾ يريد أهل مكة، والابتلاء الاختـبار، والمعنى أعطيناهم أموالا ليشكروا لا ليـبطروا؛ فلما بطروا وعادوا مـحمدا ﷺ ابتلينـاهم بالجوع والقحط كـما بلونا أهل الجنة المعـروف خبـرها عندهم، وذلك أنهـا كانت بأرض اليـمن بالقرب منـهم على فراسخ من صنعـاء - ويقال: بفرسخـين - وكانت لرجل يؤدي حق الله تعالى منها؛ فلما مات صـارت إلى ولده، فمنعوا الناس خيرها وبخلوا بحق الله فيها؛ فـأهلكها الله من حيث لم يمكنهم دفع ما حل بها، قال الكلبي: كان بينهم وبين صنعاء فرسخان؛ ابتـلاهم الله بأن أحرق جنتهم، وقيل: هي جنة بضوران، وضوران على فرسخ من صنعاء، وكان أصحاب هذه الجنة بعد رفع عيسى عليه السلام بيسير - وكانوا بخلاء - فكانوا يجدون الـتمر ليـلا من أجل المساكين، وكانوا أرادوا حـصاد زرعهـا وقالوا: لا يدخلهـا اليوم عليكم مسكين، فغدوا عليها فإذا هي قد اقتلـعت من أصلها فأصبحت كالصريم؛ أي: كالليل، ويقال أيضا للنهار صريم، فإن كان أراد الليل فلاسوداد موضعـها، وكأنهم وجدوا موضعها حمأة، وإن كان أراد بالصريم النهار فلذهاب الشجر والزرع ونقاء الأرض مـنه، وكان الطائف الذي طاف عليها جبريل عليه السلام فاقتلعها، فيقال: إنه طاف بهـا حول البيت ثم وضعها حيث مدينة الطائف اليوم؛ ولذلك سميت الطائـف، وليس في أرض الحجاز بلدة فيهـا الشجر والأعناب والماء غيـرها، وقال البكري في المعجم: سميت الطائف؛ لأن رجلا من الصدف [1] يقال له: الدمون بنى حائطا وقال: قد بنيت لكم طائفا حول بلدكم؛ فسميت الطائف، والله أعلم.

الثانية : قال بعض العلماء: على من حصد زرعـا أو جد ثمرة أن يواسي منها من حضره؛ وذلك معنى قوله: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١] وأنه غير الزكاة على ما تـقدم في الأنعام بيانه، وقال بعضهم: وعليه تـرك ما أخطأه الحاصدون، وكان بعض العباد يتـحرون أقواتهم من هذا، وروي أنه نهي عن الحصاد بالليل[2]، فقيل: إنه لما ينقطع عن المسـاكين في ذلك من الرفق، وتأول من قال هذا الآية التي في «سورة ن »والقلم ، قيل: إنما نهي عن ذلك خشية الحيات وهوام الأرض.

قلت : الأول أصح؛ والثاني حسن، وإنما قلنا الأول أصح ؛لأن العقـوبة كانت بسبب ما أرادوه

(١) الصدف :مخلاف باليمن منسوب إلى القبيلة ،والنسب إليها صدفى. معجم البلدان (٣/ ٤٥١) .

(٢) صحيح : صححه الألباني (٦٨٧٢) في صحيح الجامع، وعزاه للبيهقي عن الحسين ـ رضي الله عنه .

من منع المساكين كما ذكر الله تعالى، روى أسباط عن السدي قال: كان قوم باليمن وكان أبوهم رجلا صالحا، وكان إذا بلغ ثماره أتاه المساكين فلم يمنعهـم من دخولها وأن يأكلوا منها ويتزودوا؛ فلما مات قال بنوه بعضهم لبعض: علام نعطي أموالنا هؤلاء المساكين! تعالوا فلندلج، فنصر منها قبل أن يعلم المساكين؛ ولم يستثنوا؛ فانطلقوا وبعضهم يقول لبعض خفتا: لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين؛ فذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا﴾ يعني حلفوا فيما بينهم ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ يعني: لنجذنها وقت الصبح قبل أن تخرج المساكين؛ ولا يستثنون؛ يعني: لم يقـولو: ا إن شاء الله، وقال ابن عباس [١]: كانت تلك الجنة دون صنعاء بفرسـخين، غرسها رجل من أهل الصلاح وكان له ثلاثة بنين، وكـان للمساكين كل ما تعداه المنجل فلم يجـذه من الكرم، فإذا طرح على البساط فكل شيء سقط عن البسـاط فهو أيضا للمساكين، فإذا حصدوا زرعهم فكل شيء تعداه المنجل فهو للمساكين، فإذا درسوا كان لهم كل شيء انتثر؛ فكان أبوهم يتصدق منها على المساكين، وكـان يعيش في ذلك في حياة أبيهم اليتامى والأرامل والمساكين، فلما مـات أبوهم فعلوا ما ذكر الله عنهم، فقـالوا: قل المال وكثر العيال؛ فتـحالفوا بينهم ليغـدون غدوة قبل خـروج الناس ثم ليصرمـنها ولا تعرف المسـاكين، وهو قوله: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا﴾ أي: حلفوا ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا﴾ ليقطعن ثمـر نخيلهم إذا أصبحـوا بسدفة [٢] من الليل لئلا ينتـبه المساكين لهم، والصرم القطع، قال: صـرم العذق عن النخلة، وأصرم النخل أي: حان وقت صـرامه، مثل أركب المهر وأحصد الزرع، أي: حان ركوبه وحصاده.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَثْنُونَ﴾ أي: ولم يقولوا : إن شاء الله، وقال مجـاهد: كان حرثهم عنبا ولم يقولوا : إن شاء الله، وقال أبو صـالح: كان استثناؤهم قولهم: سبحـان الله ربنا، وقيل: معنى ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ أي: لا يستثنون حق المساكين؛ قاله عكرمة، فجاؤوها ليلا فرأوا الجنة مسودة قد طاف عليها طائف من ربك وهم نائمـون، قيل: الطائف جـبرئيل عليـه السلام؛ على مـا تقدم ذكـره، وقال ابن عباس: أمر من ربك [٣]، وقال قتادة: عذاب من ربك [٤]، ابن جريج: عتق من نار خرج من وادي جهنم [٥]، والطائف لا يكون إلا بالليل؛ قاله الفراء.

الثالثـة : قلت : في هذه الآية دليل على أن العـزم مما يؤاخذ به الإنسان؛ لأنهم عـزموا على أن يفعلوا فعـوقبوا قبل فعلهم، ونظيـر هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥]، وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال: «إذا التقى المسـلمان بسيفيـهما ، فالقـاتل والمقتول في

---

(١) ضعيف جدًا : البغوي (٨/ ١٩٤، ١٩٥) في تفسيره من طريق السُّدي الكذاب ، عن الكلبي الكذاب ، عن أبي صالح الكذاب ، فالإسناد مظلم .

(٢) سدفة : ظلمة ـ اللسان« سدف» .

وقيل : اختلاط النور والظلمة .

(٣) ضعيف : الطبري من طريق قابوس عن أبيه ، وفي قابوس لين ، ومن طريق العوفيين (٢٩/ ٣٣) في تفسيره .

(٤) ذكره الماوردي (٤/ ٣٠٩) في النكت والعيون .

(٥) عزاه السيوطي (٦/ ٣٩٥) في الدر المنثور لابن المنذر . قلت : وهو ضعيف لعدم وجود سند له.

النار» قيل: يا رسول الله، هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصا على قتل صاحبه»(١)، وقد مضى مبينا في سورة آل عمران عند قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا﴾ [آل عمران: ١٣٥].

﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ۝ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ۝ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ أي: كالليل المظلم ؛ عن ابن عباس والفراء وغيرهما، قال الشاعر:

تَطَاوَلَ لَيلُكَ الجُونُ البَهِيمُ فما يَنْجَابُ عنْ صُبْحٍ صَرِيمِ

أي: احترقت فصارت كالليل الأسود، وعن ابن عباس أيضا: كالرماد الأسود(٣). قال: الصريم: الرماد الأسود بلغة خزيمة. الثوري: كالزرع المحصود(٤)، فالصريم بمعنى المصروم، أي: المقطوع ما فيه، وقال الحسن: صرم عنها الخير، أي: قطع(٥)؛ فالصريم مفعول أيضا، وقال المؤرج: أي: كالرملة انصرمت من معظم الرمل، يقال: صريمة وصرائم؛ فالرملة لا تنبت شيئا ينتفع به، وقال الأخفش: أي: كالصبح انصرم من الليل، وقال المبرد: أي: كالنهار؛ فلا شيء فيها، قال شمر: الصريم الليل والصريم النهار؛ أي: ينصرم هذا عن ذاك وذاك عن هذا، وقيل: سمي الليل صريما لأنه يقطع بظلمته عن التصرف؛ ولهذا يكون فعيل بمعنى فاعل، قال القشيري: وفي هذا نظر؛ لأن النهار يسمى صريما ولا يقطع عن تصرف، ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ﴾ ينادي بعضهم بعضا : ليقطعن ثمر نخيلهم إذا أصبحوا بسدفة من الليل لئلا يتنبه المساكين ﴿أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾ عازمين على الصرام والجداد، قال قتادة: حاصدين زرعكم، وقال الكلبي: ما كان في جنتهم من زرع ولا نخيل، فتحالفوا بينهم ليغدون غدوة قبل خروج الناس ثم ليصرمنها ولا تعرف المساكين.

﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ۝ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ۝ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ﴾ أي: يتسارون؛ أي: يخفون كلامهم ويسرونه لئلا يعلم بهم أحد؛ قاله عطاء وقتادة(٦)، وهو من خفت يخفت إذا سكن ولم يبين، كما قال دريد بن الصمة:

وإنّي لَمْ أَهْلِكْ سُلالاً وَلَمْ أَمُتْ خُفَاتا وَكُلا ظَنَّه بِي عُودِي

وقيل: يخفون أنفسهم من الناس حتى لا يروهم، وكان أبوهم يخبر الفقراء والمساكين، فيحضروا وقت الحصاد والصرام، ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾ أي: على قصد وقدرة في أنفسهم ويظنون أنهم تمكنوا من مرادهم، قال معناه ابن عباس(٧) وغيره، والحرد، القصد، حرَد يحرِد بالكسر حردا قصد،

(١) صحيح : وقد سبق.

(٢) ضعيف : فيه جهالة المحدث عن ابن عباس كما في تفسير الطبري (٢٩/ ٣٣).

(٣ ـ ٥) الماوردي (٤/ ٣٠٩) في النكت والعيون.

(٦) صحيح إلى قتادة : الطبري (٢٩/ ٣٤).

(٧) منقطع : بين علي بن أبي طلحة الوالبي ، وابن عباس ـ رضي الله عنهما الطبري (٢٩/ ٣٤) في تفسيره.

obeikandi.com

تقول: حردْتُ حردَك؛ أي: قصدت قصدك، ومنه قول الراجز:

أَقْبَلَ سَيْلٌ جَاءَ مِنْ عِنْدَ اللَّهِ يَحْرِدُ حَرْدَ الجَنَّةِ المُغِلَّه

أنشده النحاس:

قَدْ جَاءَ سَيْلٌ جَاءَ مِنْ أَمْرِ اللهِ يَحْرِدُ حَرْدَ الجَنَةِ المُغِلَّة

قال المبـرد: المغلة ذات الغلة، وقال غيـره: المِغلة التي يجري الماء في غللها أي: في أصـولها، ومنه تغللت بالغالية، ومنه تغليت، أبدل من اللام ياء، ومن قال تغلفت فمـعناه عنده جعلتها غلافا، وقال قتادة ومجاهد: ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ أي: على جد[١]. الحسن: على حاجة وفاقة[٢]، وقال أبو عبيدة والقتيبي: على حرد: على منع؛ من قولـهم حاردت الإبل حرادا أي: قلت: ألبانها، والحرود من النوق القليلة الدر، وحاردت السنة: قل مطرها وخيرها، وقـال السدي وسفيان: ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ على غضب، والحرد: الغضب، قال أبو نصر أحمد بن حاتم صاحب الأصمعي: وهو مخفف؛ وأنشد شعراً:

إِذَا جِيادُ الخَيْلِ جَاءَتْ تَرْدي مَمْلُوءةً مِنْ غَضَبٍ وَحَرَدِ

وقال ابن السكيت: وقد يحرك؛ تقول منه: حرد بالكسر حردا، فهو حارد وحردان، ومنه قيل: أسد حارد، وليوث حوارد، وقيل: ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ على انفراد، يقال: حرد يحرد حرودا؛ أي: تنحى عن قومه ونزل منفردا ولم يخالطهم، وقال أبو زيد: رجل حريد من قوم حرداء، وقد حرد يحرد حرُودا: إذا ترك قومه وتحول عنهم، وكوكب حريد؛ أي: معتزل عن الكواكب، قال الأصمعي: رجل حريد؛ أي: فريد وحيد، قال: والمنحرد المنفرد في لغة هذيل، وأنشد لأبي ذؤيب:

كأنّه كَوْكَبٌ في الجَوِّ مُنْحَرِدُ

ورواه أبو عمرو بالجيم، وفسره: منفرد، قال: وهو سهيل، وقـال الأزهري: حرد اسم قريتهم، السدي: اسم جنتهم؛ وفيه لغتان: حرد وحرد، وقـرأ العامة بالإسكان، وقرأ أبو العالية وابن السميقع بالفتح[٣]؛ وهما لغتـان، ومعنى ﴿قَادِرِينَ﴾ قد قـدروا أمرهم وبنوا عليه؛ قـاله الفراء، وقال قـتادة: قادرين على جنتهم عند أنفسهم[٤]، وقال الشعبي ﴿قَادِرِينَ﴾ يعني على المساكين[٥]، وقيل: معناه من الوجود؛ أي: منعوا وهم واجدون.

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ۝٦٦ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۝٦٧ ﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ﴾ أي: لما رأوها محتـرقة لا شيء فيها قـد صارت كالليل الأسود ينظرون إليهـا كالرماد، أنكروها وشكوا فيها، وقال بـعضهم لبعض: ﴿إِنَّا لَضَالُّونَ﴾ أي: ضللنا الطريق إلى جنتنا؛ قاله قـتادة[٦]، وقيل: أي: إنا لضـالون عن الصواب في غدونـا وعلى نية منع

(١) كذا في السابق بسند صحيح: الطبري (٢٩/ ٣٤) في تفسيره..

(٢) السابق (٢٩/ ٣٥).

(٣) قراءة غير متـواترة: وأثر السدى وغيره ضعيف جداً وغريب، ولا يصح، وقـال ابن كثير (٨/ ١٥٥): «وأبعد السُّدى في هذا. أ. هـ قصد ابتعد عن الصواب والخير.

(٤، ٥) ذكرهما الماوردي (٤/ ٣١٠) في النكت والعيون.

(٦) صحيح إلى قتادة: الطبري (٢٩/ ٣٦) في تفسيره.

المساكين؛ فلذلك عوقبنا، ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ أي: حرمنا جنتنا بما صنعنا، روى أسباط عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والمعاصي، إن العبد ليذنب الذنب فيحرم به رزقا، كان هيئ له» ثم تلا: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ [القلم: ١٩] الآيتين(١).

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ أي: أمثلهم وأعدلهم وأعقلهم، ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ أي: هلا تستثنون، وكان استثناؤهم تسبيحا؛ قاله مجاهد وغيره(٢)، وهذا يدل على أن هذا الأوسط كان أمرهم بالاستثناء فلم يطيعوه، قال أبو صالح: كان استثناؤهم سبحان الله، فقال لهم: هلا تسبحون الله؛ أي: تقولون: سبحان الله وتشكرونه على ما أعطاكم(٣)، قال النحاس: أصل التسبيح التنزيه لله عز وجل؛ فجعل مجاهد التسبيح في موضع إن شاء الله؛ لأن المعنى تنزيه الله عز وجل أن يكون شيء إلا بمشيئته، وقيل: هلا تستغفرونه من فعلكم وتتوبون إليه من خبث نيتكم؛ فإن أوسطهم قال لهم حين عزموا على ذلك وذكرهم انتقامه من المجرمين: ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾ اعترفوا بالمعصية، ونزهوا الله عن أن يكون ظالما فيما فعل، قال ابن عباس في قولهم: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾ أي: نستغفر الله من ذنبنا، ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ لأنفسنا في منعنا المساكين، ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ﴾ أي: يلوم هذا هذا في القسم ومنع المساكين، ويقول: بل أنت أشرت علينا بهذا، ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾ أي: عاصين بمنع حق الفقراء وترك الاستثناء، وقال ابن كيسان: طغينا نعم الله فلم نشكرها كما شكرها آباؤنا من قبل، ﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا﴾ تعاقدوا وقالوا: إن أبدلنا الله خيرا منها لنصنعن كما صنعت آباؤنا؛ فدعوا الله وتضرعوا فأبدلهم الله من ليلتهم ما هو خير منها، وأمر جبريل أن يقتلع تلك الجنة المحترقة فيجعلها بزغر من أرض الشام، ويأخذ من الشام جنة فيجعلها مكانها، وقال ابن مسعود: إن القوم أخلصوا وعرف الله منهم صدقهم فأبدلهم جنة يقال لها الحيوان، فيها عنب يحمل البغل منها عنقودا واحدا، وقال اليماني أبو خالد: دخلت تلك الجنة فرأيت كل عنقود منها كالرجل الأسود القائم، وقال الحسن: قول أهل الجنة: ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ لا أدري إيمانا كان ذلك منهم أو على حد ما يكون من المشركين إذا أصابتهم الشدة؛ فيوقف في كونهم مؤمنين، وسئل قتادة عن أصحاب الجنة: أهم من أهل الجنة أم من أهل النار؟ فقال: لقد كلفتني تعبا، والمعظم يقولون: إنهم تابوا وأخلصوا؛

---

(١) ضعيف: فيه إرسال ابن سابط، عن ابن مسعود ولا أراه سمع منه، وفي سنده ليث بن أبي سليم وهو ضعيف، ورواه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير (٨/ ١٥٥).
وله رواية ضعيفة ضعفها الألباني (٩٠) في سنن ابن ماجه عن ثوبان ـ رضي الله عنه.

(٢) ضعيف: الطبري (٢٩/ ٣٧) في تفسيره.

(٣) البغوي (٨/ ١٩٦) في تفسيره.

حكاه القشيري، وقراءة العامة: ﴿يُبْدِلَنَا﴾ بالتخفيف، وقرأ أهل المدينة وأبو عمرو بالتشديد [١]، وهما لغتان، وقيل: التبديل تغيير الشيء أو تغيير حاله وعين الشيء قائم، والإبدال رفع الشيء ووضع آخر مكانه، وقد مضى في سورة النساء القول في هذا.

﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ﴾ أي: عذاب الدنيا وهلاك الأموال؛ عن ابن زيد، وقيل: إن هذا وعظ لأهل مكة بالرجوع إلى الله لما ابتلاهم بالجدب لدعاء النبي ﷺ، أي: كفعلنا بهم نفعل بمن تعدى حدودنا في الدنيا ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ وقال ابن عباس: هذا مثل لأهل مكة حين خرجوا إلى بدر وحلفوا ليقتلن ﷺ وأصحابه، وليرجعن إلى مكة حتى يطوفوا بالبيت ويشربوا الخمر، وتضرب القينات على رؤوسهم؛ فأخلف الله ظنهم وأسروا وقتلوا وانهزموا كأهل هذه الجنة لما خرجوا عازمين على الصرام فخابوا، ثم قيل: إن الحق الذي منعه أهل الجنة المساكين يحتمل أنه كان واجبا عليهم، ويحتمل أنه كان تطوعا؛ والأول أظهر، والله أعلم، وقيل: السورة مكية؛ فبعد حمل الآية على ما أصاب أهل مكة من القحط، وعلى قتال بدر.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ تقدم القول فيه؛ أي: إن للمتقين في الآخرة جنات ليس فيها إلا التنعم الخالص، لا يشوبه ما ينغصه كما يشوب جنات الدنيا، وكان صناديد قريش يرون وفور حظهم من الدنيا، وقلة حظوظ المسلمين منها؛ فإذا سمعوا بحديث الآخرة وما وعد الله المؤمنين، قالوا: إن صح أنا نبعث كما يزعم محمد ومن معه لم يكن حالنا وحالهم إلا مثل ما هي في الدنيا، وإلا لم يزيدوا علينا ولم يفضلونا، وأقصى أمرهم أن يساوونا، فقال: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ أي: كالكفار، وقال ابن عباس وغيره: قالت كفار مكة: إنا نعطى في الآخرة خيرا مما تعطون؛ فنزلت[٢]. ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ ثم وبخهم فقال: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ هذا الحكم الأعوج؛ كأن أمر الجزاء مفوض إليكم حتى تحكموا فيه بما شئتم أن لكم من الخير ما للمسلمين، ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ أي: لكم كتاب تجدون فيه المطيع كالعاصي، ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ تختارون وتشتهون، والمعنى: أن لكم - بالفتح ولكنه كسر لدخول اللام؛ تقول: علمت أنك عاقل بالفتح، وعلمت إنك لعاقل - بالكسر - فالعامل في ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ ﴿تَدْرُسُونَ﴾ في المعنى، ومنعت اللام من فتح ﴿إِنَّ﴾، وقيل: تم الكلام عند قوله: ﴿تَدْرُسُونَ﴾ ثم ابتدأ فقال: ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ أي: إن لكم في هذا الكتاب إذًا ما تخيرون؛ أي: ليس لكم ذلك، والكناية في ﴿فِيهِ﴾ الأولى، والثانية راجعة

(١) قراءة متواترة: تقريب النشر (ص١٣٨).

(٢) ذكره البغوي (٨/ ١٩٧) دون عزو لابن عباس رضي الله عنه.

إلى الكتاب. ثم زاد في التوبيخ.

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا﴾ أي: عهـود ومواثيق، ﴿بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ مؤكدة، والبـالغة المؤكدة بالله تعالى، أي: أم لكم عهود على الله تعالى استوثقتم بها في أن يدخلكم الجنة، ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ كسرت ﴿ إِنَّ﴾ لدخول اللام في الخـبر، وهي من صلة ﴿أَيْمَانٌ﴾، والموضع النصب ولكن كسـرت لأجل اللام؛ تقول: حلفت إن لك لكذا، وقـيل: تم الكلام عند قوله: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ ثم قال: ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ إذا؛ أي: ليس الأمر كذلك، وقرأ ابن هرمز: «أيـن لكم فيه لما تخيرون» «ين لكم لما تحكمون»؛ بالاستفهام فيهما جميعا، وقرأ الحسن البصري: «بالغةً» بالنصب على الحال؛ إما من الضمير في ﴿لَكُمْ﴾ لأنه خبر عن ﴿أَيْمَانٌ﴾ ففيه ضميـر منه، وإما من الضمير في ﴿عَلَيْنَا﴾ إن قدرت ﴿عَلَيْنَا﴾ وصفا للإيمان لا متـعلقا بنفس الإيمان؛ لأن فيه ضميرا منه، كمـا يكون إذا كان خبرا عنه، ويجوز أن يكون حالا من ﴿أَيْمَانٌ﴾ وإن كانت نكرة، كما أجـازوا نصب «حقّا» على الحال من «متاع» في قوله تعالى: ﴿مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢٤١]، وقرأ العامة: ﴿بَالِغَةٌ﴾ بالرفع نعت لـ ﴿أَيْمَانٌ﴾.

﴿ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ أي: سل يا محمد هؤلاء المتقولين علي: أيهم كفيل بما تقدم ذكره، وهو أن لهم من الخير ما للمسلمين، والزعيم: الكفيل والضمين؛ قاله ابن عباس وقتادة، وقال ابن كيسان: الزعيم هنا القائم بالحجة والدعوى، وقال الحسن: الزعيم الرسول، ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ أي: ألهم، والميم صلة، ﴿شُرَكَاءُ﴾ أي: شهداء، ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ﴾ يشهدون على مـا زعموا، ﴿إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ في دعواهم، وقيل: أي: فليأتوا بشركائهم إن أمكنهم؛ فهو أمر معناه التعجيز.

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

قوله تـعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ يجوز أن يكون الـعامل في ﴿يَوْمَ﴾ ﴿فَلْيَأْتُوا﴾ أي: فليأتوا بشركائهم يوم يكشف عن ساق ليشفع الشركاء لهم، ويجوز أن ينتصب بإضمار فعل، أي: اذكر يوم يكشف عن ساق؛ فيوقف على: ﴿صَادِقِينَ﴾ ولا يوقف عليه على التقدير الأول، وقرئ: «يوم نكشف» بالنون، وقـرأ ابن عبـاس: «يوم تكشف عن سـاق» بتاء مـسمـى الفاعل؛ أي: تكشف الشـدة أو القيامة، عن ساقها؛ كقولهم: شمرت الحرب عن ساقها، قال الشاعر:

فتى الحرب إن عضّت به الحربُ عَضَّها ... وإن شَمّرت عن ساقها الْحَرْبُ شَمّرا

وقال الراجز:

قد كشفت عن ساقها فشُدُّوا ... وجَدّت الحربُ بكم فَجِدُّوا

وقال آخر:

عجبت من نفسي ومن إشفاقها ... ومن طِرَاد الطيرِ عن أرزاقها

في سَنَة قد كشفت عن ساقها حمراء تَبْري اللحَم عن عُرَاقها

وقال آخر:

كشفت لهم عن ساقها وبدا من الشّر الصُّرَاحْ

وعن ابن عباس أيضـا والحسن وأبي العالية :« تُكْشَفُ» بتـاء غير مسمـى الفاعل، وهذه القراءة راجعة إلى معنى: ﴿يُكْشَفُ﴾ وكأنه قال: يوم تكشف القيامـة عن شدة، وقرئ :« يوم تُكْشَفُ» بالتاء المضمومـة وكسر الشين؛ من أكشف: إذا دخل في الكشف، ومنه: أكـشف الرجل فهو مكشِف: إذا انقلبت شفته العليـا، وذكر ابن المبارك قال: أخبرنا أسامة بن زيد عن عكرمـة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ قال: عن كرب وشدة [١]. أخبـرنا ابن جريج عن مجاهد قـال: شدة الأمر وجده [٢]،وقال مجاهد: قال ابن عباس هي أشد ساعة في يوم القيامة [٣]،وقال أبو عبيدة: إذا اشتد الحرب والأمر، قـيل: كشف الأمر عن ساقه،والأصل فيه أن من وقع في شيء يحـتاج فيه إلى الجد شمر عن ساقه؛ فاستعـير الساق والكشف عنها في موضع الشدة،وقيل: ساق الشيء أصله الذي به قوامـه؛ كسـاق الشجرة وسـاق الإنسان،أي: يوم يكشف عن أصـل الأمر فتظهـر حقـائق الأمور وأصلها، وقيل: يكشف عن ساق جهنم، وقـيل: عن ساق العرش، وقيل: يريد وقت اقتراب الأجل وضعف البدن؛أي: يكشف المريض عن ساقه ليبصر ضعفه، ويدعوه المؤذن إلى الصلاة ، فلا يمكنه أن يقوم ويخرج، فأما مـا روي أن الله يكشف عن ساقه، فإنه عز وجل يتعالى عن الأعـضاء والتبعيض وأن يكشف ويتغطى، ومعناه أن يكشف عن العظيم من أمره، وقيل: يكشف عن نوره ـ عز وجل.

وروى أبو مـوسى عن النبي ﷺ في قـوله تعـالى: ﴿عَن سَاقٍ﴾ قـال: «يكشف عن نور عظيم يخرون له سجدا» [٤]، وقال أبو الليث السمرقندي في تفسيره: حدثنا الخليل بن أحمد، قال: حدثنا ابن منيع ،قال:حدثنا هدبة ،قال: حدثنا حماد بن سلمة عن عدي بن زيد عن عمارة القرشي عن أبي بردة عن أبي موسى، قال: حدثني أبي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان يوم القيامة مثل لكل قوم ما كانوا يعبدون في الدنيا ، فيذهب كل قوم إلى مـا كانوا يعبدون ويبقى أهل التوحيد فيقال لهم: ما تنتظرون وقد ذهب الناس فيقولون : إن لنا ربا كنا نعـبده في الدنيا ولم نره » قال: وتعرفونه إذا رأيتموه فـيقولون :نعم ،فـيقال: فكيف تعرفـونه ولم تروه ؟ قالوا: إنه لا شبيـه له فيكشف لهم الحجاب ،فينظرون إلى الله تعـالى، فيخرون له سجدا ،وتبقى أقوام ظهـورهم مثل صياصي[٥] البقر فينظرون إلى الله تعالى ،فـيريدون السجود، فلا يستطيعـون، فذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ

(١) ضعيف : أسامـة بن زيد هذا ضعيف وهو بالطبع غير الصحـابي الجليل حب رسول الله ﷺ ، ورواه ابن المبارك (١/ ١٠٥) في الزهد .

(٢) منقطع : بين ابن جريج ومجاهد السابق (١/ ١٠٥) ، والطبري (٢٩/ ٤١).

(٣) في إسناده نظر : الطبـري (٢٩/ ٤١) ،وابن المبـارك (١/ ١٠٥) في الزهد ، وهذا مخـالف لإثبـات أهل السنة للساق لله تعالى ،ولو فرض صحة الإسناد فلعل ساعة كشف الساق هى أشد الساعات ـ الله أعلم .

(٤) ضعيف : الطبري (٢٩/ ٤٤) في التفسير وفيه : روح بن جناح، ضعـفه ابن حبان ، وفيه جهالة مولى لعمر بن عبـد العزيز، وفيـه تدليس الوليد بن مسلم وهو يدلس تـدليس التسوية ، ويلزمـه التصريح بالتـحديث من أول الإسناد إلى منتهاه ،وإنما صرّح في أوله وحسب .

(٥) صياصي البقر : قرونها والواحدة صيصة. اللسان«صيص» .

﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ﴾ فيقول الله تعالى: عبادي، ارفعوا رؤوسكم، فقد جعلت بدل كل رجل منكم رجلا من اليهود والنصارى في النار»، قال أبو بردة: فحدثت بهذا الحديث عمر بن عبد العزيز فقال: الله الذي لا إله إلا هو لقد حدثك أبوك بهذا الحديث؟ فحلف له ثلاثة أيمان؛ فقال عمر: ما سمعت في أهل التوحيد حديثا هو أحب إلي من هذا (١). وقال قيس بن السكن: حدث عبد الله بن مسعود عند عمر بن الخطاب فقال: إذا كان يوم القيامة قام الناس لرب العالمين أربعين عاما شاخصة أبصارهم إلى السماء، حفاة عراة يلجمهم العرق، فلا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم أربعين عاما، ثم ينادي مناد: أيها الناس، أليس عدلا من ربكم الذي خلقكم وصوركم وأماتكم وأحياكم ثم عبدتم غيره أن يولي كل قوم ما تولوا؟ قالوا: نعم، قال: فيرفع لكل قوم ما كانوا يعبدون من دون الله فيتبعونها حتى تقذفهم في النار، فيبقى المسلمون والمنافقون فيقال لهم: ألا تذهبون قد ذهب الناس؟ فيقولون: حتى يأتينا ربنا؛ فيقال لهم: أو تعرفونه؟ فيقولون: إن اعترف لنا عرفناه، قال فعند ذلك يكشف عن ساق ويتجلى لهم فيخر من كان يعبده مخلصا ساجدا، ويبقى المنافقون لا يستطيعون كأن في ظهورهم السفافيد (٢)، فيذهب بهم إلى النار، ويدخل هؤلاء الجنة؛ فذلك قوله تعالى: ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ﴾ أي: ذليلة متواضعة؛ ونصبها على الحال، ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ وذلك أن المؤمنين يرفعون رؤوسهم ووجوههم أشد بياضا من الثلج، وتسود وجوه المنافقين والكافرين حتى ترجع أشد سوادا من القار (٣).

قلت: معنى حديث أبي موسى وابن مسعود ثابت في صحيح مسلم من حديث أبي سعيد الخدري وغيره (٤).

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ﴾ أي: في الدنيا، ﴿وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ معافون أصحاء، قال إبراهيم التيمي: أي: يدعون بالأذان والإقامة فيأبونه (٥)، وقال سعيد بن جبير: كانوا يسمعون: حي على الفلاح فلا يجيبون (٦)، وقال كعب الأحبار: والله ما نزلت هذه الآية إلا في الذين يتخلفون عن الجماعات، وقيل: أي: بالتكليف الموجه عليهم في الشرع؛ والمعنى متقارب، وقد مضى في سورة البقرة الكلام في وجوب صلاة الجماعة (٧)، وكان الربيع بن خثيم قد فلج (٨) وكان يهادى (٩) بين الرجلين إلى المسجد؛ فقيل: يا أبا يزيد، لو صليت في بيتك لكانت لك رخصة، فقال: من سمع

---

(١) ضعيف جدًا: فيه عمارة القرشي قال الأزدي: ضعيف جدًا كما في الميزان (٥/ ٢١٥)، والحديث عند السمرقندي (٣/ ٢٩٠) في تفسيره.

(٢) السفافيد: على وزن فعاعيل جمع سفود: وهي حديدة ذات شعب معقفة، معروفة يشوى بها اللحم. اللسان «سفد».

(٣) ضعيف: الطبري (٢٩/ ٤٢) في تفسيره، وفيه تدليس الأعمش وقد عنعنه، وقيس بن السكن لا أراه سمع من عمر - رضي الله عنه، وفي الحديث نكارة من ناحية المتن.

(٤) صحيح: وهي أحاديث الشفاعة لكن هذا شاهد للمتن، ويبقى الإسناد ضعيفًا، والله أعلم.

(٥، ٦) الطبري (٢٩/ ٤٥) في تفسيره.

(٧) عند الآية (٤٣).

(٨) فُلِج: أصابه الفالج وهو داء معروف كأنه الشلل. اللسان «فلج».

(٩) يهادى بين الرجلين: يمشي معتمدًا عليهما من ضعفه وتمايله النهاية ٥/ ٢٥٥.

حي على الفلاح فليجب ولو حبوا [١]، وقيل لسعيد بن المسيب: إن طارقا يريد قتلك فتغيب، فقال: أبحيث لا يقدر الله علي؟ فقيل له: اجلس في بيتك، فقال: أسمع حي على الفلاح، فلا أجيب!

﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿فَذَرْنِي﴾ أي: دعني، ﴿وَمَن يُكَذِّبُ﴾ ﴿مَن﴾ مفعول معه أو معطوف على ضمير المتكلم، ﴿بِهَٰذَا الْحَدِيثِ﴾ يعني القرآن؛ قاله السدي، وقيل: يوم القيامة، وهذا تسلية للنبي ﷺ؛ أي: فأنا أجازيهم وأنتقم منهم، ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ معناه: سنأخذهم على غفلة وهم لا يعرفون؛ فعذبوا يوم بدر، وقال سفيان الثوري: نسبغ عليهم النعم وننسيهم الشكر، وقال الحسن: كم مستدرج بالإحسان إليه، وكم مفتون بالثناء عليه، وكم مغرور بالستر عليه، وقال أبو روق: أي كلما أحدثوا خطيئة جددنا لهم نعمة وأنسيناهم الاستغفار، وقال ابن عباس: سنمكر بهم، وقيل: هو أن نأخذهم قليلا ولا نباغتهم، وفي حديث «أن رجلا من بني إسرائيل قال يا رب كم أعصيك وأنت لا تعاقبني» قال «فأوحى الله إلى نبي زمانهم أن قل له كم من عقوبة لي عليك وأنت لا تشعر، إن جمود عينيك وقساوة قلبك استدراج مني وعقوبة لو عقلت» [٢]، والاستدراج: ترك المعاجلة، وأصله النقل من حال إلى حال كالتدرج، ومنه قيل درجة؛ وهي منزلة بعد منزلة، واستدرج فلان فلانا؛ أي استخرج ما عنده قليلا، ويقال: درجه إلى كذا واستدرجه بمعنى؛ أي: أدناه منه على التدريج فتدرج هو.

قوله تعالى: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ أي: أمهلهم وأطيل لهم المدة، والملاوة: المدة من الدهر، وأملى الله له أي: أطال له، والملوان: الليل والنهار، وقيل: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ أي: لا أعاجلهم بالموت؛ والمعنى واحد، وقد مضى في «الأعراف» [٣] بيان هذا، ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ أي: إن عذابي لقوي شديد فلا يفوتني أحد.

﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

عاد الكلام إلى ما تقدم من قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾، أي: أم تلتمس منهم ثوابا على ما تدعوهم إليه من الإيمان بالله؟ فهم من غرامة ذلك مثقلون لما يشق عليهم من بذل المال؛ أي: ليس عليهم كلفة، بل يستولون بمتابعتك على خزائن الأرض ويصلون إلى جنات النعيم.

﴿ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ﴾ أي: علم ما غاب عنهم، ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ وقيل: أينزل عليهم

(١) القصة في الزهد (١/ ٢٥) لابن المبارك، ومعرفة الثقات (١/ ٣٥٣) للعجلي، وشعب الإيمان (٣/ ٧٨) للبيهقي.
(٢) الخبر من الإسرائيليات وليس من كلامه ﷺ.
(٣) عند الآية (١٨٣).

الوحي بهذا الذي يقولون، وعن ابن عباس: الغيب هنا اللوح المحفوظ [١]، فهم يكتبون مما فيه يخاصمونك به، ويكتبون أنهم أفضل منكم، وأنهم لا يعاقبون، وقيل: ﴿يَكْتُبُونَ﴾ يحكمون لأنفسهم بما يريدون.

﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾

قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي: لقضاء ربك، والحكم هنا القضاء، وقيل: فاصبر على ما حكم به عليك ربك من تبليغ الرسالة، وقال ابن بحر: فاصبر لنصر ربك، قال قتادة: أي: لا تعجل ولا تغاضب فلا بد من نصرك [٢]، وقيل: إنه منسوخ بآية السيف [٣]، ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ يعني يونس عليه السلام، أي: لا تكن مثله في الغضب والضجر والعجلة، وقال قتادة: إن الله تعالى يعزي نبيه ﷺ ويأمره بالصبر ولا يعجل كما عجل صاحب الحوت؛ وقد مضى خبره في سورة يونس، والأنبياء، والصافات والفرق بين إضافة ذي وصاحب في سورة يونس فلا معنى للإعادة، ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ أي: حين دعا في بطن الحوت فقال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ أي: مملوء غما، وقيل: كربا، الأول قول ابن عباس ومجاهد، والثاني قول عطاء وأبي مالك. قال الماوردي [٤]: والفرق بينهما: أن الغم في القلب، والكرب في الأنفاس، وقيل: مكظوم محبوس، والكظم: الحبس؛ ومنه قولهم: فلان كظم غيظه، أي: حبس غضبه؛ قاله ابن بحر، وقيل: إنه المأخوذ بكظمه وهو مجرى النفس؛ قاله المبرد، وقد مضى هذا وغيره في «يوسف».

﴿ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُۢبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ۝ فَٱجْتَبَىٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ ﴾

قوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ قراءة العامة: ﴿تَدَارَكَهُ﴾، وقرأ ابن هرمز والحسن: «تدّاركه» بتشديد الدال؛ وهو مضارع أدغمت التاء منه في الدال، وهو على تقدير حكاية الحال؛ كأنه قال: لولا أن كان يقال فيه: تتداركه نعمة، ابن عباس وابن مسعود: «تداركته» وهو خلاف المرسوم، و﴿تَدَارَكَهُ﴾ فعل ماض مذكر حمل على معنى النعمة؛ لأن تأنيث النعمة غير حقيقي، و«تداركته» على لفظها، واختلف في معنى النعمة هنا؛ فقيل النبوة؛ قاله الضحاك [٥]، وقيل: عبادته التي سلفت؛ قاله ابن جبير [٦]، وقيل: نداؤه ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]؛ قاله ابن زيد، وقيل: نعمة الله عليه إخراجه من بطن الحوت؛ قاله ابن بحر، وقيل: أي: رحمة من ربه؛ فرحمه وتاب عليه [٧]، ﴿لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ أي: لنبذ مذموما ولكنه نبذ سقيما غير مذموم، ومعنى ﴿مَذْمُومٌ﴾ في قول ابن عباس: مليم [٨]، قال بكر بن عبد الله: مذنب [٩]، وقيل: ﴿مَذْمُومٌ﴾

---

(١) كذا عند الطبري دون عزو لابن عباس رضي الله عنهما (٢٩/ ٤٦) في تفسيره.
(٢) صحيح: الطبري (٢٩/ ٤٧) صحيحًا إليه.
(٣) ولا نسخ هنا فلا تعارض بين الأمرين.
(٤) النكت والعيون (٦/ ٧٣).
(٥ ـ ٩) زاد المسير (٤/ ٣١٣) لابن الجوزي.

مبعد من كل، خير، والعراء: الأرض الواسعة الفضاء التي ليس فيها جبل ولا شجر يستر، وقيل: ولولا فضل الله عليه لبقي في بطن الحوت إلى يوم القيامة، ثم نبذ بعراء القيامة مذموما، يدل عليه قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣]، ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾ أي: اصطفاه واختاره، ﴿فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ قال ابن عباس: رد الله إليه الوحي، وشفعه في نفسه وفي قومه، وقبل توبته، وجعله من الصالحين بأن أرسله إلى مائة ألف أو يزيدون.

﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ﴿إِن﴾ هي المخففة من الثقيلة، ﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾ أي: يعتانونك، ﴿بِأَبْصَارِهِمْ﴾ أخبر بشدة عداوتهم النبي ﷺ، وأرادوا أن يصيبوه بالعين فنظر إليه قوم من قريش وقالوا: ما رأينا مثله ولا مثل حججه، وقيل: كانت العين في بني أسد، حتى إن البقرة السمينة أو الناقة السمينة تمر بأحدهم فيعاينها ثم يقول: يا جارية، خذي المكتل [١] والدرهم فأتينا بلحم هذه الناقة، فما تبرح حتى تقع للموت فتنحر [٢]، وقال الكلبي: كان رجل من العرب يمكث لا يأكل شيئا يومين أو ثلاثة، ثم يرفع جانب الخباء فتمر به الإبل أو الغنم فيقول: لم أر كاليوم إبلا ولا غنما أحسن من هذه، فما تذهب إلا قليلا حتى تسقط منها طائفة هالكة، فسأل الكفار هذا الرجل أن يصيب لهم النبي ﷺ بالعين فأجابهم؛ فلما مر النبي ﷺ أنشد:

قد كان قومك يحسبونك سيّداً ... وإخال أنك سيّدٌ مَعْيُونُ

فعصم الله نبيه ﷺ ونزلت [٣] ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ﴾، وذكر نحوه الماوردي، وأن العرب كانت إذا أراد أحدهم أن يصيب أحدا - يعني في نفسه وماله - تجوع ثلاثة أيام، ثم يتعرض لنفسه وماله فيقول: تالله ما رأيت أقوى منه ولا أشجع ولا أكثر منه ولا أحسن؛ فيصيبه بعينه فيهلك هو وماله؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية، قال القشيري: وفي هذا نظر؛ لأن الإصابة بالعين إنما تكون مع الاستحسان والإعجاب لا مع الكراهية والبغض؛ ولهذا قال: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ أي: ينسبونك إلى الجنون إذا رأوك تقرأ القرآن.

قلت: أقوال المفسرين واللغويين تدل على ما ذكرنا، وأن مرادهم بالنظر إليه قتله، ولا يمنع كراهة الشيء من أن يصاب بالعين عداوة حتى يهلك، وقرأ ابن عباس وابن مسعود والأعمش وأبو وائل ومجاهد: « ليزهقونك » أي: ليهلكونك، وهذه قراءة على التفسير، من زهقت نفسه وأزهقها، وقرأ أهل المدينة: « ليَزلقونك » بفتح الياء [٤]، وضمها الباقون؛ وهما لغتان بمعنى؛ يقال: زلقه يزلقه وأزلقه يزلقه إزلاقا إذا نحاه وأبعده، وزلق رأسه يزلقه زلقا إذا حلقه، وكذلك أزلقه وزلقه تزليقا، ورجل زلق وزملق - مثال هدبد - وزمالق وزملق - بتشديد الميم - وهو الذي ينزل قبل أن يجامع؛

(١) المكتل: الزنبيل وهو وعاء من خوص اللسان« كتل» .
(٢) ذكره الواحدى معلقًا (ص٣٧٨) في أسباب النزول ، والبغوي (٨/ ٢٠١، ٢٠٢) في تفسيره .
(٣) الواحدي في السابق دون ذكر الشعر موقوفًا على الكلبي ، والبحر المحيط (٨/ ٣١٧، ٣١٨) ، والبغوي (٨/ ٢٠٢) في تفسيره .
(٤) قراءة سبعية متواترة : كما في تقريب النشر (ص١٨٣) .

حكاه الجوهـري وغيره، فـمعنى الكلمـة إذًا التنحيـة والإزالة؛ وذلك لا يكون في حق النبي ﷺ إلا بهلاكه وموته، قال الهروي: أراد ليعتانونك بعيونهم فيزيلونك عن مقامك الذي أقامك الله فيه عداوة لك، وقـال ابن عـباس: ينفـذونك بأبصـارهم[١]؛ يقـال: زلق السهـم وزهق: إذا نفذ؛ وهو قـول مجاهد، أي: ينفذونك من شدة نظرهم، وقال الكلبي: يصرعونك [٢]، وعنه أيضا والسدي وسعيد بن جبير: يصرفونك عما أنت عليه من تبليغ الرسالة [٣]، وقال العوفي: يرمونك [٤]، وقال المؤرج: يزيلونك، وقال النضر بن شميل والأخفش: يفتنونك، وقال عبد العزيز بن يحيى: ينظرون إليك نظرا شزرا بتحديق شديد، وقـال ابن زيد: ليمسونك،وقال جعفر الصـادق: ليأكلونك، وقال الحسن وابن كيسان: ليقتلونك، وهذا كما يقال: صرعني بطرفه،وقتلني بعينه، قال الشاعر:

ترميك مَزْلَقَةُ العيون بطرفها وتَكِلُّ عنك نصالَ نَبْلِ الرامي

وقال آخر:

يتقارضون إذا التقَوْا في مجلس نَظَراً يُزل مواطىء الأقدام

وقيل: المعنى أنهم ينظرون إليك بالعداوة حتى كـادوا يسقطونك، وهذا كله راجع إلى ما ذكرنا، وأن المعنى الجامع: يصيبونك بالعين، والله أعلم.

﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ۝٥٢ ﴾

أي :وما القرآن إلا ذكـر للعالمين، وقيل: أي وما محـمد إلا ذكر للعالمين يتـذكرون به، وقيل: معناه شرف؛ أي: القرآن، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]،والنبي ﷺ شرف للعالمين أيضا ، شرفوا باتباعه والإيمان به ﷺ.

---

(١) حسن بمجموع طرقه : الطبري (٢٩/ ٤٨، ٥٠) في تفسيره من طرق عدة منها الصحيح والضعيف .
(٢ ـ ٤)النكت والعيون (٤/ ٣١٣) للماوردي ، والشوكاني (٧/ ٢٨٧) في فتح القدير .